

تفسير ابن كثير

قُلْ أَمْرٌ رَبِّي بِالْقِسْطِ ^ص وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ^ج كَمَا
بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ

وقوله : (قل أمر ربي بالقسط) أي : بالعدل والاستقامة ، (وأقيموا وجوهكم عند كل
مسجد وادعوه مخلصين له الدين) أي : أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها ، وهي
متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله تعالى وما جاءوا به عنه من
الشرائع ، وبالإخلاص له في عبادته ، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين
: أن يكون صوابا موافقا للشريعة ، وأن يكون خالصا من الشرك . وقوله تعالى : (كما بدأكم
تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) - اختلف في معنى قوله تعالى (كما
بدأكم تعودون) فقال ابن أبي نجیح ، عن مجاهد : (كما بدأكم تعودون) يحييكم بعد
موتكم . وقال الحسن البصري : كما بدأكم في الدنيا ، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء
. وقال قتادة : (كما بدأكم تعودون) قال : بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئا ، ثم ذهبوا ، ثم
يعيدهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما بدأكم أولا كذلك يعيدكم آخرا

واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير ، وأيده بما رواه من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج ، كلاهما عن المغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال :
قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : " يا أيها الناس ، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) [الأنبياء : 104] . وهذا الحديث منخرج في الصحيحين ، من حديث شعبة ، وفي حديث البخاري - أيضا - من حديث الثوري به . وقال وقاء بن إياس أبو يزيد ، عن مجاهد : (كما بدأكم تعودون) قال : يبعث المسلم مسلما ، والكافر كافرا . وقال أبو العالية : (كما بدأكم تعودون) ردوا إلى علمه فيهم . وقال سعيد بن جبير : (كما بدأكم تعودون) كما كتب عليكم تكونون - وفي رواية : كما كنتم تكونون عليه تكونون . وقال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى : (كما بدأكم تعودون) من ابتداء الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه ، وإن عمل بأعمال أهل السعادة ، كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة ، ثم صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه . ومن ابتدئ خلقه على السعادة ، صار إلى ما ابتدئ خلقه عليه ، وإن عمل بأعمال أهل الشقاء ، كما أن السحرة عملت بأعمال أهل

الشقاء ، ثم صاروا إلى ما ابتدئوا عليه .وقال السدي : (كما بدأكم تعودون فريقا هدى
وفريقا حق عليهم الضلالة) يقول : (كما بدأكم تعودون) كما خلقناكم ، فريق مهتدون
وفريق ضلال ، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم .وقال علي بن أبي طلحة ، عن
ابن عباس قوله : (كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) قال : إن
الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنا وكافرا ، كما قال تعالى (هو الذي خلقكم فمنكم
كافر ومنكم مؤمن) [التغابن : 2] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم مؤمنا وكافرا .قلت
: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري " فوالذي لا إله غيره ، إن
أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو : ذراع - فيسبق
عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلها ، وإن أحدكم يعمل بعمل أهل النار ،
حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو : ذراع - فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل
الجنة ، فيدخل الجنة " وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا علي بن الجعد ، حدثنا أبو غسان ،
عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن
العبد يعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل الجنة ، وإنه من أهل النار . وإنه يعمل - فيما

يرى الناس - بعمل أهل النار ، وإنه من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم " هذا قطعة من حديث رواه البخاري من حديث أبي غسان محمد بن مطرف المدني ، في قصة " قزمان " يوم أحد . وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تبعث كل نفس على ما كانت عليه " وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه ، عن الأعمش ، به . ولفظه : " يبعث كل عبد على ما مات عليه " قلت : ولا بد من الجمع بين هذا القول - إن كان هو المراد من الآية - وبين قوله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها) [الروم : 30] وما جاء في الصحيحين ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه " وفي صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم " الحديث . ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر ، في ثاني الحال ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده

، والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق ، وجعله في غرائزهم وفطرهم ،
ومع هذا قدر أن منهم شقيا ومنهم سعيدا : (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن
([التغابن : 2] وفي الحديث : " كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها "
وقدر الله نافذ في بريته ، فإنه هو) الذي قدر فهدى ([الأعلى : 3] و (الذي أعطى
كل شيء خلقه ثم هدى) [طه : 50] وفي الصحيحين : " فأما من كان منكم من أهل
السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل
الشقاوة "